العلاقات الثقافية بين منطقة سوف وبلاد الجريد التونسية

د.عاشوري قمعون

جامعة الوادي

الملخص:

لا شك في أن الصلات الفكرية والثقافية بين تونس والجنوب الشرقي الجزائري تعد من النماذج الطريفة والفريدة، ومثالاً للصلات الحميمة التي تنشأ بين قطرين متجاورين. فهي تُعتبر مثالاً نادراً لعلاقات الجوار الإيجابي والخصيب بين الأقطار العربية التي تجمع بينها حدود مشتركة، وهي صلات ذات مظاهر متعددة ومتنوعة. كما أنها مشتملة على ميادين شتى: تعليمية، وثقافية، وصحفية، وسياسية. والمصدر الرئيس لربط جسور وشائج الدم وصلات القربى والتواصل بين البلدين، يعود إلى ذلك التحريض الذي أطلقه العلاّمة عبد الحميد بن باديس للطلبة، مشدداً على ضرورة الالتحاق بجامع الزيتونة للنهل من علومه المتنوعة.

Résumé:

Il ne fait aucun doute que les liens intellectuels et culturels entre la Tunisie et le sud-est de l'Algérie, est l'un des modèles éxotiques et uniques, et un exemple des liens intimes entre deux pays proches. Ils sont considérés comme un rare exemple de relations de voisinage positif et fertile entre les pays arabes qui ont des frontières communes. Ce sont des liens avec des aspects nombreux et variés. Ils contiennent également des divers domaines: éducatifs, culturels, journalistiques, et politiques. Et la principale source de liaison des relations du sang, de parenté, et de la communication entre les deux pays, remonte à l'incitation lancé par l'érudit Abdelhamid Ben Badis envers les étudiants, en insistant sur la nécessité de rejoindre la mosquée de Zitouna pour suivre leurs études des sciences diversifiées.

توطئة:

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد:

كم أنا سعيد بمشاركتي في هذا المؤتمر العالمي الكبير، الذي جمع ثلة من كبار فطاحل العلماء والمؤرخين المبجلين. وكم تحدوني الغبطة والسعادة والحبور أن انضم إلى هذا المحفل العلمي الموقر، الذي اختارني لأكون من ضمن أعضائه بمساهمتي المتواضعة هذه، بموضوع عنوانه: العلاقات الثقافية بين منطقة سوف وبلاد الجريد التونسية.

وقد افتتحت موضوع الدراسة بمقدمة، تطرقت فيها إلى إبراز أهمية البحث المتمثلة في إظهار مدى الدور الذي لعبته بلاد الزيبان وسوف في التمكين لربط العلاقات بينهما وبين بلاد الجريد التونسية، سواء أكانت هذه الروابط اجتماعية أو سياسية، أو ثقافية، أو اقتصادية. أمدتنا بشتى العلوم والآداب عبر العصور، وأخرجت لنا العلماء والأدباء والمفكرين.

أسئلة الدراسة:

تكونت الدراسة من الأسئلة التالية:

- لماذا كانت نفطة جسر التواصل بين منطقة سوف وتونس؟
- ما مقدار مساهمة زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في خدمة الدين والوطن ؟
- من هم أشهر الشيوخ الذين ذاع صيتهم على مستوى الوطن العربي والإسلامي ؟
- وما النتائج التي تمخضت عن جهود الطلبة المتخرجين، سواء من زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، أو من جامع الزيتونة ؟

وستتم الإجابة عن هذه الأسئلة ومناقشتها من خلال مباحث الدراسة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق ما يأتي:

- إبراز مستوى العلاقات الثقافية والفكرية التي ربطت تونس بمنطقة سوف.
- معرفة دوافع هجرة الشيخ مصطفى بن عزوز نحو بلاد الجريد التونسية.
- الاطلاع على المهام التي قامت بها الزاوية في الميدان الاجتماعي والسياسي والتعليمي والديني سواء في تونس، أو في البلاد المجاورة.
- إظهار مجالات التفوق التي ميزت الشيوخ: محمد المكي بن عزوز، ومحمد الخضر حسين، وإبراهيم بن عامر عن غيرهم من العلماء والمفكرين.

منهج الدراسة:

يستخدم الباحث في دراسته هذه المنهجين الاسترادادي والاستنباطي، حيث يقوم بقراءة وتحليل واستقراء المادة العلمية ذات الصلة بمحاور الدراسة من مصادرها العلمية، وبما يخدم مستوى الدراسة للوصول إلى إدراك الغرض من الموضوع وفق الخطة المرسومة. ويؤكد الباحث أنه أثبت جميع المعلومات التي توفرت لديه عن كل مصدر تمت مراجعته.

خطة الدراسة:

تكونت الدراسة من مقدمة، ومباحث خمسة، وخاتمة. وقد شملت مباحث الدراسة ما يلي:

المبحث الأول: نفطة همزة الوصل بين بلدة سوف والجنوب التونسي، والثاني: دور زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، والثالث: إجازات الشيخ محمد المكي بن مصطفى لبعض العلماء الجزائريين، والرابع: دور الشيخ محمد الخضر

حسين في ربط العلاقات الفكرية بمنطقة سوف، والخامس: تتلمذ الشيخ إبراهيم بن عامر على بعض علماء تونس.

ويرجو الباحث من المولى عز وعلا التوفيق والسداد، وأن ينفع بمقاصد هذه الدراسة جميع العباد وربوع البلاد.

مقدمة:

من أبرز مظاهر التواصل الذي ربط بلاد الجريد التونسية بالزيبان وأحواز سوف، هي تلك الوفود التي قدمت من كل حدب وصوب، سواء للعمل في المناطق المنجمية بقفصة والمتلوي وأم العرائس؛ أو للتزود من مختلف العلوم الفقهية واللغوية والأدبية. هذا بالإضافة إلى هجرات السكان الجماعية أو الفردية، هروبا من بطش الاستعمار الفرنسي، الذي نتج عنه انتشار الفقر والحرمان والمرض وتفشي الجهل. مما يجعلنا نستقرئ الأحداث للتطلع إلى محاولة التعرف على النتائج الكامنة وراء السياسة الاستعمارية الغاشمة، والمظاهر الإيجابية لهذا التقارب الاجتماعي بين القطرين الشقيقين، من خلال ما ستتكشف عنه هذه الدراسة المتواضعة.

1- نفطة همزة الوصل بين بلدة سوف والجنوب التونسي:

لعبت نفطة في أطوارها المختلفة، دورا هاما كمنفذ رئيسي للجزائريين، الذين كانوا يشقون عصا الطاعة في وجه سلطات الاحتلال الاستعماري الفرنسي، ويتخذون من هذه القرية معبرا للهروب، وموطنا للكر والفر.

وفي زوايا وكتاتيب نفطة، وجد مئات الجزائريين مستقرا ومقاما لتلقي العلم، والتتلمذ على كبار علماء هذه القرية، الذين قاموا بدور بارز في تلقين الناشئة الجزائرية مبادئ العربية والدين الإسلامي. وتبعا لذلك اختلطت العائلات والأصول، وامتزجت الدماء وقويت المصاهرات. واشتهرت نفطة كمركز من مراكز العلم بالنسبة للجزائريين المقيمين على امتداد التخوم الجزائرية، وتداخلت لهجتها باللهجات المتداولة في الجنوب الجزائري، وعاداتها بعادات الجزائريين. وعلى عرصات هذه الكتاتيب، وفي مقام تلك الزوايا، تلقى الشيخان: محمد المكي بن عزوز ومحمد الخضر حسين المبادئ الأولى من التعليم، جنبا إلى جنب مع تلاميذ من مختلف أنحاء الجزائر، وتعرفا عن كثب على وجوه الكثيرين منهم. ولمسا قضية الجزائر والحرمان الذي يعانيه أترابهما ممن اضطروا للهجرة إلى هذه الكتاتيب، مثل العلامة الموسوعي الشيخ إبراهيم بن عامر، وجدي من الأم، الحاج محمد بن إبراهيم الخليل (1870-1948م)، اللذين درسا في نفطة، بعد أن منعت فرنسا انتشار التعليم العربي في بلدهما الأم[1].

2- دور زاوية الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز:

ولد الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز(1220-1282هـ/1803-1865م) بزاوية والده بالبرج، القريبة من طولقة بالجنوب الجزائري، وذلك سنة 1220هـ/ 1803م. ثم أخذ العلم عن شيوخ بلده، كما أخذ عن

1 - محمد صالح الجابري: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص221-222.

محمد الأمير[2]، أحد شيوخ الأزهر الشريف، وإبراهيم الباجوري المصري[3]، ومحمد بن علي السنوسي[4]. وأخذ تعاليم الطريقة الرحمانية عن الشيخ علي بن عمر الطولقي[5]. ثم تولى مشيخة زاوية والده بعد وفاته سنة

---

2 – ولد الشيخ محمد الأمير في شهر ذي الحجة سنة 1154هـ/1742م في أسيوط بصعيد مصر. وبعد تسع سنوات، حفظ القرآن ثم تلقى العلم حوالي عشرين عاما على أيدي علماء الأزهر آنذاك، وظهرت مواهبه في تلقي العلوم بعد 11 عاما من التحاقه بالأزهر. إذ جمع وألف كتاب المجموع في الفقه المالكي، وكان عمره 21 عاما. وقد أحدث هذا الكتاب ضجة في الفقه المالكي في مصر وباقي العالم الإسلامي، وفاق به كل أقرانه، وحتى شيوخ الأزهر السابقين. وصار هذا الكتاب مرجعا للدارسين، وحتى أساتذته كانوا يرجعون إليه في بعض مسائلهم، ويرشحون ذلك الكتاب لمن يريد الاستفسار عن المذهب.

توفي عام 1232هـ/1817م.

انظر أشرف فوزي: شيوخ الأزهر؛ حياة محمد الأمير السنباوي في تاريخ الجبرتي.

3 – ولد الإمام إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري سنة 1198هـ/1784م. وينسب إلى بلدة الباجور، وهي إحدى مدن محافظة المنوفية. وفيها علماء كثيرون تأثر بهم الباجوري، منهم والده البرهان الباجوري. وهو على هذا، نرى أنه نشأ في بيئة علمية من شأنها إنجاب العلماء والعباقرة. وقد تربى الباجوري تحت رعاية والده، حيث حفظ القرآن الكريم وجوَّده عليه، وقَدِمَ إلى الأزهر لطلب العلم سنة 1212هـ. وترك القاهرة فترة الاحتلال الفرنسي، ثم عاد إليها. ثم جدَّ واجتهد في طلب العلم وداوم عليه. وتتلمذ على أعلام علماء الأزهر مثل: الشيخ محمد الأمير، الذي أجازه بجميع ما ورد في "ثبته"، وتتلمذ على الشيخ الشرقاوي والقويسني، وهو أكثر الشيوخ الذين داوم معهم في طلب العلم. وفي وقتٍ قصيرٍ، ظهرت عليه علامات النبوغ، فدرس ودرَّس للطلاب، وألَّف في علوم مختلفة. وكان يقضي وقته من أول النهار حتى العشاء مع الطلاب يدرِّس لهم، ويؤلف الكتب. وإذا فرغ من هذا، جلس يرتل القرآن بصوتٍ جميلٍ شجيٍّ يسعى لسماعه مئات الناس.

وتولى مشيخة الأزهر سنة 1263هـ/1847م، واستمر في التدريس مع القيام بشؤون المشيخة. وكان يمتاز بالهيبة والوقار، والحرص على كرامة العلماء. وكان السلطان عباس الأول يحضر دروسه أحيانًا كثيرةً بالأزهر، ويقبِّل يده.

وقد كرَّس فضيلة الشيخ الباجوري حياته من أجل الأزهر ورفعته حتى أقعده المرض، وحال بينه وبين ما يريد. وقد لبى الشيخ الباجوري نداء ربه سنة 1277هـ/1861م، وصُلِّيَ عليه في الأزهر، وأجريت له المراسم المعتادة من قبل زملائه من العلماء وتلاميذه النجباء. وشُيِّعَ في جنازة مهيبة، تتفق وجهاده في سبيل رفعة الأزهر وطلابه وعلمائه. وهكذا رحل عالمنا الجليل إلى مثواه الأخير بعد أن ملأ الدنيا علمًا.

انظر سليمان رصد الحنفي الزياتي: كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ص 143؛ أشرف فوزي: شيوخ الأزهر.

4– ولد محمد السنوسي يوم الاثنين 12 ربيع الأول 1202هـ/21 ديسمبر1787م بضاحية وادى مينا، الواقعة على ضفة وادي الشِلْف. وطلب العلم على يد علماء مستغانم، ثم رحل إلى فاس سنة1828 م، والتحق بجامع القرويين، وحصل على المشيخة الكبرى، وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس، ودرس فيها الطرائق القادرية والناصرية والحبيبية والشاذلية والجازولية. ولكن دعوته إلى جمع شمل المسلمين أقلقت حكومة السلطان، فرحل أواخر عام 1829م إلى عين ماضي، ثم قصد الأغواط في جنوب الجزائر. وبعد احتلال فرنسا للجزائر، قرر السفر إلى قابس وطرابلس وبنغازي. ثم بلغ مصر، فلم يمكث بها طويلا حتى توجه إلى مكة المكرمة، ثم عاد إلى فاس. ولكن نشاطه أقلق الحكومة، فتوجه إلى طرابلس، وشرع في مساعدة ثورات الجزائر ضد الفرنسيين. وأنشأ عددا من الزوايا، وتبعه الناس حتى أضحت الحكومة تخشى بأسه، وساءت العلاقات بين الجانبين. فانتقل إلى واحة جغبوب،

1233هـ/1818م، وذلك تحت إشراف ورعاية شيخه، إلى أن آنس منه القدرة على تسيير شؤونها. وقد تزوج علي بن عمر ابنة تلميذه مصطفى، وتدعى ذخيرة[6]. وعند وقوع بسكرة تحت السيطرة الفرنسية يوم 04 مارس سنة 1844م، هاجر الشيخ إلى نفطة، رفقة صهره الشيخ الحسين بن علي بن عمر[7]، وأسس بها زاوية رحمانية عام 1258هـ/1844م لنشر مبادئ الطريقة بالقطر التونسي، وما لبثت أن انفصلت عن الزاوية الأم بالزيبان. وكان الشيخ صاحب شخصية جذابة، بما له من فصاحة وبيان، وتمكن في العلم، وديانة، وذوق صوفي، وصدق في ممارسة طقوسه، وله عدة مؤلفات في التصوف. وترجع شهرة زاويته إلى كونها أصبحت مدرسة للتعليم، بالإضافة إلى الدور الديني والاجتماعي. وكان رجالها يكملون دراستهم بجامع الزيتونة، ويتولون الوظائف الدينية كالقضاء والتعليم. وذهب إلى هذه الزاوية أيضا عدد من طلبة الجزائر للدراسة أيضا. وأضحت ملجأ للهاربين من ظلم

جنوب الصحراء الليبية، وجعل مقره هناك. ولما توفي عام 1276هـ/ 1859م، كانت الطريقة التي أنشأها، قد انتشرت انتشارا كبيرا في معظم الرقعة الجغرافية لإفريقيا الشمالية.

انظر محمد إبراهيم الجيوشي: "أشهر الدعاة في العصر الحديث: السيد محمد بن علي السنوسي وخلفاؤه والدعوة السنوسية". مجلة الداعي، العددان 6-7 (دار العلوم ديوبند: أبريل- يونيو 2013م).

---

5 – ولد علي بن عمر بن أحمد بن الموفق، ببلدة طولقة خلال عام 1166هـ/ 1754م. نشأ بمسقط رأسه، وتلقى العلوم هناك. وأخذ أوراد الطريقة الرحمانية على يد الشيخ محمد بن عزوز البرجي. ولما بلغ 28 عاما، أمره شيخه بإقامة زاوية عام 1194هـ/ 1780م في حارة الهبرة بطولقة، ذاع صيتها وطبقت شهرتها الآفاق. وفتح الشيخ زاويته للتعليم والإرشاد والتوجيه، وتلقين الأوراد الرحمانية، وإيواء الفقراء والمساكين، وتقديم الطعام للمحتاجين وعابري السبيل. واهتم بجمع الكتب ونشر العلم والمعرفة في تلك الديار والمناطق المجاورة. وأدى فريضة الحج رفقة شيخه عام 1232هـ/1816م.

وقتل خلال قيامه بالصلح بين قبيلتين متحاربتين، برصاصة طائشة يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 1258هـ/ 14 أفريل 1842م، ودفن بزاويته الحالية.

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج4. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1998، ص148.

6 – أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ج4، ص148-149.

7 – الشيخ الحسين بن علي بن عمر الطولقي(1246-1309هـ/1830-1891م). جاء إلى الوادي عام 1870م لتأسيس زاوية رحمانية بحي الأعشاش، استجابة لطلب من عائلة موساوي، غير أن اعتراض شيخ عرش الأعشاش محمد بن موسى بن محمد(1830-1901)، ابن أخت سالم العائب على هذا الإنشاء، حال دون ذلك، متذرعا بوجود زاوية سيدي سالم القريبة وفي نفس الحي، وأعطى موافقته على إنشاء مسجد، ساهم الشيخ الحسين من ماله الخاص في بنائه. ثم غادر الشيخ الحسين مدينة الوادي قافلا إلى نفطة. ولولا هذا الاعتراض، لحظيت بلاد سوف بميلاد الشيخ الخضر على أرضها. مع العلم أني ختمت القرآن الكريم عام 1967 على يد المقرئ الشهير، الشيخ عبد الحميد بن عبد الرحمان قروي(1920-1989م) في هذا الجامع. وعرف بجامع سيدي الحسين، واشتهر في الوقت الحالي بجامع سيدي حميدة.

انظر: التقرير التاريخي الذي كتبه الشيخ الهاشمي حسني عام 1967 بطلب من الإمام عبد الحميد قروي، لفائدة وزارة الأوقاف الجزائرية.

الاستعمار الفرنسي، وقاعدة خلفية لمقاومة الاحتلال، سيما قبل احتلال تونس سنة 1881م. وقد هرع إليها بعض الثوار أمثال: ناصر بن شهرة، وشريف ورقلة، محمد بن عبد الله. ونزل فيها محي الدين بن الأمير عبد القادر عام 1870-1871م حين دعا إلى الجهاد. فأهل بسكرة وتقرت وتبسة والوادي كانوا يقصدون زاوية نفطة للتعليم والسلوك معا[8].

أصبحت زاويته ذات شهرة واسعة في العلم والتصوف، حيث أنشأ فيها مدرسة هامة لتعليم القرآن الكريم وحفظه، وتدريس كافة فنون العلم. وجهز بيوتا لسكنى المتفرغين لطلب العلم، وأحضر لها كبار العلماء من مختلف الجهات. كما أسس عدة زوايا أخرى في تونس، كان لها أثر بعيد في تعليم القرآن الكريم وحفظ العقيدة الإسلامية، منها: زاوية توزر، والقصرين، وجرجيس، وجندوبة، وغدامس، والنوبة....

توفي الشيخ مصطفى في آخر ذي الحجة عام 1282هـ / 14 ماي 1866م، ودفن بنفطة[9].

3- إجازات الشيخ محمد المكي بن مصطفى لبعض العلماء الجزائريين:

كان محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز محدثا، مسندا، مؤرخا، مقرئا، مجودا، فلكياً، فقيها، أصوليا، فرضيا، صوفياً، أديبا، ناظما. هاجر أبوه من الجزائر لاجئا إلى تونس، هربا من وحشية الاحتلال الفرنسي، حيث ولد في مدينة نفطة يوم الأحد 15 رمضان 1270هـ/11جوان 1854م، وتعلم بزاوية والده. وولي الإفتاء بنفطة سنة 1297هـ، ثم نصب قاضيا عليها[10].

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ ابن عزوز في بيئة صالحة علمية، وتولى والده العالم الصالح التقي تربيته وتوجيهه، وتعلم في زاوية والده الشهيرة التي تعرف حتى اليوم باسم (زاوية سيدي مصطفى)، وحفظ القرآن في تلك الزاوية وهو في سن الحادية عشرة من عمره، واعتنى بحفظ المتون، واجتهد في مزاولة العلوم.

شيوخه وقراءاته في نفطة:

كانت توزر ونفطة في عهده آهلتين بالعلم، زاخرتين بالأدب، ناشطتين في حركة التأليف والتدريس حتى اشتهرتا باسم الكوفة والبصرة. قرأ على الشيخ قاسم الخيراني "شرح الشيخ خالد الأزهري على الآجرومية" و"شرح ميارة على ابن عاشر" في الفقه، وقرأ "الرحبية" و"الدرة البيضاء" في علم الفرائض، و"مبادئ علم الفلك" على ابن عمه الشيخ محمد بن عبد الرحمن التارزي، وقرأ "ألفية ابن مالك" بشروحها، و "مختصر خليل" بشروحه على الشيخ النوري بن أبي القاسم الزبيدي النفطي، وقرأ "الترمذي" على عمه الشيخ محمد المدني بن عزوز.

---

8 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ج4، ص 153.

9 - أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1. مطبعة الرسالة، بيروت، لبنان، ص482-484.

10 - انظر عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج3. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، ص734.

شيوخه في جامع الزيتونة:

لما تزود بالقدر الكافي من العلوم على عدة أساتذة ومشايخ خاصة وغير خاصة، اشرأبت نفسه إلى الاستزادة، فالتحق بالمعهد الزيتوني وهو في الثانية والعشرين من عمره سنة 1292هـ، فلقي علماء أعلام أجلاء، لازم أكثرهم، منهم: العلامة النحرير عمر بن الشيخ(ت.1329هـ) المفتي المالكي إذ ذاك بحاضرة تونس، وقرأ عليه المحلى على جمع الجوامع في الأصول، والموطأ ومختصر السعد وغيرها من فنون أخرى. لازم شيخ المشايخ بها، الأستاذ الأكبر محمد النجار، المفتي المالكي(ت.1331هـ) أيضا بالعاصمة. ومن جملة ما قرأ عليه: مقامات الحريري بالشريشي الكبير. ولازم أيضا الشيخ الإمام الأستاذ سالم بوحاجب[11] المفتي المالكي، وقرأ عليه المغني والسيوطي والسيد في وضع اللغة بشرح سعد الدين التفتزاني. وأخذ القراءات السبع رواية ودراية على شيخه العالم محمد البشير التواتي(ت.1311هـ).

تربيته ومعلوماته:

لما ارتوى من حياضه الفياضة بالعلوم، تفنن في المعقول والمنقول والفروع والأصول بالأخذ من هؤلاء الأعلام المحققين. تصدر للإقراء حتى تخرج عنه كثير من العلماء، واصطفاه محمد الطيب باي، ولي العهد سابقا، وأمير الأمحال، أستاذ البلاط الملكي لإقراء أحفاده.

ولما كان جامع الزيتونة منهل العلوم والمعارف، ومعقل العروبة وحامل أمجاد الإسلام، فقد غرس في نفوس طلاّبه هذه الروح الأبيّة، فاصطبغ خريجوه بصبغة الولاء لمجد العروبة والإسلام. ومن هنا كانوا هم المشاعلَ النيّرة التي أضاءت طريق الجهاد ضدّ المستعمر الفرنسي البغيض. لقد كانت الزيتونة ممثلّة في شخص علمائها وأبنائها وخريجيها في الصفّ الأمامي على خطّ المواجهة مع العدوّ. إذ أجّج شعلةَ الجهاد ضدّ الفرنسيّين فور احتلالهم

11- سالم بو حاجب(1243-1342هـ/1827-1923م): بن عمر بو حاجب النبيلي(أبو النجاة). فقيه مشارك في أنواع من العلوم. تولى التدريس بجامع الزيتونة ثم الفتيا. له من الآثار: شرح على ألفية ابن عاصم في الأصول، وتقريرات على البخاري، وديوان خطب، وتقريرات على الأشموني على الخلاصة، وله نظم.

وقد التقى الشيخ سالم بوحاجب مع القاضي بالوادي، أحمد بن عبد الله دغمان، عندما كان الشيخ يدرس في جامع الزيتونة، وكان أحمد بن دغمان يحمل الحائك كأنه من بلاد الجريد، وسأل الشيخ، فلم يتحمل سؤاله، وقال له: أنتم الجريدية قباح لأنكم دوما تحرجون المسؤول. فسكت أحمد، وحرر له وريقة تتضمن البيت التالي: تنازلت لما تطاول سالم وسالمت والغريب يسالم. وعند انتهاء صلاة العشاء، رمى الشيخ أحمد الوريقة في طريق الشيخ سالم، وحينما رفعها الشيخ وقرأها، تيقن أن هذا الكلام ليس كلام سوقة، وطلب من النقيب أن يستدعيه. ولما مثل أمامه، سأله من أين أنت؟ فأجابه الشيخ أحمد: من قمار، فقال له الشيخ: ضيافة المؤمن ثلاثة أيام، وأنا أضيفك أربعين يوما.

انظر عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص 751؛ ومقابلة مع الشيخ أحمد خراز يوم الأربعاء 2008/08/27م، على الساعة 19.

تونس عام 1881م، مشايخ من أهل العلم والفضل والدين، فقاد حركة المقاومة الشيخ محمد السنوسي حتى نفته السلطات الاستعماريّة إلى الخارج، فحمل راية الجهاد من بعده الشيخ محمد المكي بن عزوز، وكان من مشايخ الزيتونة الثوريّين.

مؤلفاته:

رسالة في أصول الحديث– السيف الرباني – مغانم السعادة في فضل الإفادة على العبادة – نظم الجغرافية التي لا تتحول بمغالبة الدول – تعديل الحركة في عمران المملكة – عمدة الإثبات في رجال الحديث – إرشاد الحيران في خلاف قالون لعثمان، في القراءة – الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب – الحق الصريح – الذخيرة المكية في الهيئة– إسعاف الأخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان – هيئة الناسك – أصول الطرق وفروعها وسلاسلها – إقناع العاتب في آفات المكاتب – انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصة – الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية، نظم.

العلاقة العلمية التي ربطت الشيخ محمد المكي ببعض الشيوخ الجزائريين:

زار ديار سوف الشيخ المكي بن عزوز وقد ملأ الدنيا، حيث خرج مطاردا ومهاجرا لمقاومته الاستعمار الفرنسي بفتاواه ضد المصنوعات الأوربية. إذ زار القرى، ووثق علاقاته مع العلماء، ودرس في الزوايا والكتاتيب بالوادي وكوينين وقمار. وأجازه الشيخ علي بن صابر في أواخر القرن 19م، وتراسل مع الشيخ أحمد بن دغمان، والشيخ البشير بوكوشة.[12] ثم رحل سنة 1313هـ/1895م إلى الآستانة بتركيا، فتولى بها تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين[13]. ومنها أجاز الشيخ الطاهر العبيدي(1886-1968م) عن طريق المراسلة، وبالمثل أجاز الشيخ البشير بوكوشة الذي كانت تربطه به علاقة مودة. وكان يرسل له مؤلفاته، ومنها كتاب في تقرير التوحيد الخالص والدفاع عن طريقة السلف، وهذا بعد تراجع الشيخ المكي عن الطرقية التي كان من أنصارها المستميتين، واتجه نحو منهج السلفية. وقد وقع نظر الشيخ ابن باديس على مصنفين منها لدى الشيخ حمزة، فنشر فقرات مهمة اختارها، حيث يقول: وقد اطلعنا هذه الأيام عند أخينا الشيخ حمزة بوكوشة، على كتابين من الشيخ المكي إلى السيد البشير، أبي الشيخ حمزة، رحمه الله، فنقلنا منهما الكلمتين الآتيتين... وأثبتهما تحت عنوانين: الأول، التوحيد في التوجه إلى الله. تاريخ الكتاب: 12 ربيع الأول سنة 1312هـ، والآخر: الاحتجاج على المخطئين من جميع الناس. تاريخ الكتاب: 8 شعبان 1328هـ. ونقيض هاتين الجملتين هو الذي كان فاشيا في

12 – علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300-1374هـ/1882-1954م. رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر لجامعة الجزائر عام 2009م، ص72-73.

13 – مراسلة حمزة بوكوشة حول دور وادي سوف العلمي، وعلاقة علماء تونس بحواضرها يوم 12 جانفي عام 1994م. انظر علي غنابزية: المرجع السابق ص386.

الوسط الجزائري.[14]

واستجاز وأجاز علماء كثيرين من المشرق والمغرب، ومن الذين أجازهم في الجزائر: العالم التقي محمد بن الحاج محمد الهاملي، والفقيه الدراجي بن عبد الله الصولي العقبى، والإمام الطاهر دالي علي البسكري.

واستمر بقاء الشيخ محمد المكي في الأستانة، إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء 02 صفر عام 1334هـ/ 09 ديسمبر 1915م[15].

4- دور الشيخ محمد الخضر حسين في ربط العلاقات الفكرية بمنطقة سوف:

أصل أسرته ومكانته العلمية:

يعد من أشهر المتخرجين من زاوية نفطة، وقد ولد فيها يوم 26 رجب 1293هـ/16 أوت 1876م. وأصل أسرته من قرية طولقة بولاية بسكرة، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري. واسم الشيخ هو محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، فلما جاء إلى الشرق حذف "بن" من اسمه على الطريقة المشرقية، وغلب عليه الخضر عوضًا عن الأخضر. ونشأ الشيخ في أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم. وكانت بلدة نفطة التي ولد فيها، موطن العلم والعلماء، حتى إنها كانت تلقب بالكوفة الصغرى. وبها جوامع ومساجد كثيرة، وهي واحة بها زرع وفيها فلاحون. ونشأ في أسرة كريمة تعتز بعراقة النسب وكرم الأصل. ومما يدل على عراقة أسرته في العلم، أن منها جده (مصطفى بن عزوز) وأبا جده لأمه (محمد بن عزوز)، وهما من أفاضل علماء الجزائر، وخاله (محمد المكي) من كبار علماء تونس، وكان موضع الإجلال في الخلافة العثمانية. وفي هذا الجو المعبق بأريج العلم، كانت أمه حليمة تدعو له شعراً بالذَّهاب إلى الأزهر وهو ابن سنة واحدة؛ قائلة: "لخضر يا لخضر ** تكبر وتولي شيخ الأزهر"[16]. وكانت هذه الأم مباركة، إذ تلَّقى عنها ابنها كتاب الكفراوي في النَّحو، وكتاب السفطي في الفقه المالكي. وقد نشأ الخضر حسين، فحفظ القرآن الكريم، وشيئًا من الأدب والعلوم الشرعية. ثم انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة سنة 1305هـ/1887م، وهو في الثانية عشرة من عمره، والتحق بجامع الزيتونة، وأكبّ على التحصيل والتلقِّي. وكانت الدراسة فيه صورة مصغرة من التعليم في الجامع الأزهر يومئذ، تُقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقيدة وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان. وكان من أبرز شيوخه الذين اتصل بهم وتتلمذ

14- الشهاب: م13، ج1، ص 26-27، 1 محرم 1356هـ/ 14 مارس 1937م؛ سمير سمراد: "الشاعر الناقد الشيخ حمزة بوكوشة". جريدة الإصلاح، ع 9، (الجزائر: ماي وجوان، 2008) ص 66؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص734.

15- علي الرضا الحسيني: رسائل محمد المكي بن عزوز ص8؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص734؛ أحمد البختري: المرجع السابق ص 215-225.

16- ل. فكرون: "الشيخ محمد الخضر حسين الطولقي". جريدة الخبر، السبت 04 أوت 2012م

لهم: عمر بن الشيخ، ومحمد النجار، وكانا يدرّسان تفسير القرآن الكريم، والشيخ سالم بوحاجب، وكان يدرس صحيح البخاري، وقد تأثر به محمد الخضر حسين وبطريقته في التدريس.

تخرج محمد الخضر حسين من الزيتونة، وكان غزير العلم، واسع الأفق، فصيح العبارة، محبًا للإصلاح. أنشأ مجلة "السعادة العظمى" سنة 1321هـ/1903م لتنشر محاسن الإسلام، وترشد الناس إلى مبادئه وشرائعه، وتوقظ الغافلين من أبناء أمته، وتفضح أساليب الاستعمار. وقد لفت الأنظار إليه بحماسه المتقد ونظراته الصائبة، فعُهد إليه بقضاء "بنزرت"، والخطابة بجامعها الكبير سنة 1323هـ/1905م، لكنه لم يمكث في منصبه طويلاً، وعاد إلى التدريس بجامع الزيتونة وتولى تنظيم خزائن كتبه. ثم اختير للتدريس بالمدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة في تونس. وقام بنشاط واسع في إلقاء المحاضرات التي تستنهض الهمم، وتنير العقول وتثير الوجدان. وأحدثت هذه المحاضرات صدى واسعًا في وسط المجتمع التونسي.[17]

زيارته لمدينة الوادي:

لما عزم الشيخ الخضر على زيارة مدينة الوادي عام 1904م، راسل المراقب المدني يطلب منه الرخصة، فبعث هذا الأخير إلى الإقامة العامة الفرنسية بتونس للنظر في الطلب المقدم، والاطلاع على موقف السلطات الفرنسية في الجزائر. وإليكم نص الرسالة:

الإقامة العامة– المراقبة المدنية

نيابة القنصلية الفرنسية– تونس

رقم ^{03}D116

تونس في 10 أكتوبر 1904

المراقب المدني، نائب القنصل الفرنسي بتونس

إلى السيد المفوض لدى الإقامة العامة للجمهورية الفرنسية بتونس.

أتشرف بإعلامكم أن السيد الأخضر بن الحسين من زاوية طولقة(بسكرة)، الساكن بتونس، يطلب الترخيص له بالسفر إلى وادي سوف لبيع نخيله هناك. وسوف أكون ممتنا لو تطلبون من الحكومة العامة بالجزائر، إذا لم يكن هناك مانع، الاستجابة للطلب المقدم.

---

17 – د./ محمد موسى الشريف: شيخ الأزهر محمد الخضر حسين.

وقد أبرقت مصلحة الشؤون الأهلية الملحقة بالحكومة العامة بالجزائر إلى المقيم العام بتونس تحت رقم 1921 ردا على البرقية: أن السيد الأخضر بن الحسين غير المعروف بالوادي، ولعله السيد الأخضر بن الحسين الساكن بتونس، والذي يملك النخيل بسوف، ويقوم حاليا بزيارة طولقة. وفي هذه الحالة، لا نرى أي مانع من الموافقة على الزيارة[18]. وهكذا جاء الشيخ الأخضر عام 1905م إلى الوادي، واتصل ببعض أعيانها وعلمائها مثل: قائد عرش الأعشاش، محمد العيد بن موسى، والعالم الشهير الشيخ إبراهيم بن عامر. واجتمع عليه طلبتها، وألقى فيهم دروسا في التفسير، وختم لهم منظومة " غرامي صحيح في مصطلح الحديث"[19]. وقد تركت هذه الزيارة أثرها الحميد في نفوس الناس سواء في الوادي أو قمار أو كوينين، ولاسيما لدى الشيخ إبراهيم بن عامر الذي طبع كتابين في نفس العام، أي سنة 1905م، الأول في التصوف، والثاني في العروض. كما جالس وحاور بعض

---

18 – انظر: A.N.T.S: D.C:178. D:4/10.

19 – حدث هو شخصيا الشيخ حمزة بوكوشة لما زاره في القاهرة. والمنظومة من نظم الإمام أحمد بن شهاب الدين أبي العباس فرح الإشبيلي الشافعي(ت.699هـ) رحمه الله، حيث قال:

غرامي صحيحٌ والرجا فيك مُعضلٌ*** وحزني ودمعي مُرسلٌ ومسلسلُ
وصبري عنكم يشهد العقلُ أنــهُ *** ضعيفٌ ومتروكٌ وذلي أجمــلُ
ولا حسنٌ إلا سماعُ حديثكـــــم *** مشافهةً يُملى علي فأنقِـــلُ
وأمري موقوفٌ عليــك وليس لي *** على أحدٍ إلا عليك المعــولُ
ولو كان مرفوعاً إليــك لكنت لي *** على رغم عذالي ترقُ وتعــدلُ
وعذلُ عذولي منكرٌ لا أُسيغــه *** وزورٌ وتدليسٌ يُردُ ويُهمـــلُ
أقضي زماني فيك متصلَ الأسى *** ومنقطعاً عما به أتوصـــلُ
وها أنا في أكفان هجركَ مــدرجٌ *** تكلفني ما لا أُطيق فأحمــلُ
وأجريت دمعي فوق خدي مدبجاً *** ومــا هي إلا مهجتي تتحلــلُ
فمتفقٌ جفني وسُهدي وعبــرتي *** ومفترقٌ صبري وقلبي المبلبــلُ
ومؤتلف وجدي وشجوي ولوعتي *** ومختلفٌ حظي وما منك آمُلُ
خذِ الوجدَ عني مسنداً ومعنعنــاً *** فغيري بموضوع الهوى يتحيلُ
وذي نبذٌ من مبهـم الحب فاعتبر *** وغامضُه إن رمتَ شرحاً محولُ
عزيزٌ بكم صــبٌ ذليــلٌ لعزكــم *** ومشهورُ أوصافِ المحب التذللُ
غريبٌ يقاسي البعد عنكَ وما له *** وحقك عن دار الهوى متحولُ
فرفقا بمقطوعِ الوسائل ما لـــــه *** إليك سبيلٌ لا ولا عنك معدلُ
ولا زلتَ في عز منيع ورفعـــــةٍ *** وما زلتَ تعلو بالتجني وأنــزلُ
أوري بسُعدى والربـــابِ وزينبٍ *** وأنت الذي تُعنى وأنت المؤملُ
فخـــذ أولاً مــن آخـــرٍ ثم أولاً *** من النصف أيضا فهو فيه مُكملُ
أبر إذا أقسمتُ أني بحبـــــــهِ *** أهيمُ وقلبي بالصبابـــة مُشعلُ

العلماء في زاوية سيدي سالم وجامع سيدي المسعود بالوادي، أو مسجد والده الشيخ الحسين. وقد حاور الشيخ محمد بن البرية(1884-1949م) عندما التقى به في بلدة قمار[20].

كما زار الشيخ محمد الخضر بلدة كوينين، ودرس في جامع الثلمود العتيق متن البيقونية[21] في مصطلح الحديث. ومن الذين سمعوا عليه: الطالب عمر الأحمدي، وأحمد بن إبراهيم مساك، والشيخ الصغير زبيدي، وأخوه البشير، والحاج الساسي بورفة، وغيرهم.[22]

وقد عرض عليه بعض أعيان الوادي، ومنهم القائد محمد العيد، بأن يبقى بينهم يدرس الأهالي مقابل مبلغ معين من المال يجمع له من الطلبة، غير أنه أبى، مفضلا وظيفة القضاء على التدريس لأنه أكثر مالا رغم كراهته.[23]

دوره بين مدينتي أستانبول ودمشق:

ولما قامت الحرب الطرابلسية بين الدولة العثمانية وإيطاليا(1911-1912م)، وقف محمد الخضر حسين قلمه ولسانه إلى جانب دولة الخلافة، ودعا الناس إلى الوقوف معها ومساندتها. وحين حاولت الحكومة ضمه إلى العمل في محكمة فرنسية، رفض الاشتراك فيها. وشرع الاستعمار الفرنسي يضيّق عليه ويتهمه ببث روح العداء له؛ فاضطر الشيخ محمد الخضر حسين إلى مغادرة البلاد سنة 1329هـ/1911م، واتجه إلى إستانبول. وبين إستانبول ودمشق، بدأ الخضر حسين رحلته بزيارة مصر وهو في طريقه إلى دمشق. ثم سافر إلى إستانبول ولم يمكث بها طويلاً، فعاد إلى بلاده معتقدا أن الأمور قد هدأت، لكنه أصيب بخيبة أمل، وقرَّر الهجرة مرة ثانية، واختار دمشق وطنًا له، وعُيِّن بها مدرسًا للغة العربية في المدرسة السلطانية سنة1331هـ/1912م. ثم سافر إلى إستانبول، واتصل بأنور باشا وزير الحربية، فاختاره محررًا عربيًا بالوزارة، ثم بعثه إلى برلين في مهمة رسمية، فقضى بها تسعة أشهر، وعاد إلى العاصمة العثمانية، فاستقر بها فترة قصيرة لم ترقه الحياة فيها، فعاد إلى دمشق. وفي أثناء إقامته، تعرَّض لنقمة الطاغية أحمد جمال باشا حاكم الشام، فاعتقل سنة 1334هـ/1915م. وبعد الإفراج عنه، عاد إلى إستانبول، وما كاد يستقر بها، حتى أوفده أنور باشا مرة أخرى إلى ألمانيا سنة 1335هـ/1916م، والتقى

---

20 - علي غنابزية: المرجع السابق ص74-75.

21- البيقونية، نسبة إلى البيقوني الذي كان حيا قبل عام 1080هـ/1669م. وهو طه (أو عمر) بن محمد بن فتوح البيقوني، الدمشقي الشافعي. محدث، أصولي. نظم البيقونية في مصطلح الحديث. وضع الناس عليها شروحا عديدة.

انظر: معجم المؤلفين ج5 ص44.

22 - مقابلة مع الشيخ البشير الأحمدي من كوينين عام 2010.

23 - مقابلة مع الشيخ أحمد خراز الذي نقل الرواية عن المرحوم إبراهيم بن محمد الساسي قشوط، وذلك يوم الأحد 05 رمضان 1434هـ/ 14 جويلية 2013م.

هناك بزعماء الحركات الإسلامية من أمثال: عبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، وأحمد فؤاد. ثم رجع إلى إستانبول ومنها إلى دمشق، حيث عاد إلى التدريس بالمدرسة السلطانية، ودرّس لطلبته كتاب "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام النحوي المعروف.

دوره في القاهرة وموقفه من الحياة الفكرية فيها:

عندما تعرضت الشام للاحتلال الفرنسي، اضطر الخضر حسين إلى مغادرة دمشق والتوجه صوب القاهرة، التي نزلها سنة 1339هـ/1920م. واشتغل بالبحث وكتابة المقالات، ثم عمل محررًا بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، واتصل بأعلام النهضة الإسلامية في مصر، وتوثقت علاقته بهم. ثم تجنَّس بالجنسية المصرية، وتقدَّم لامتحان شهادة العالمية بالأزهر، وعقدت له لجنة الامتحان برئاسة العلامة عبد المجيد اللبان مع نخبة من علماء الأزهر الأفذاذ، وأبدى الطالب الشيخ من رسوخ القدم ما أدهش الممتحنين. وكانت اللجنة، كلما تعمَّقت في الأسئلة، وجدت من الطالب عمقًا في الإجابة وغزارة في العلم، وقوة في الحجة، فمنحته اللجنة شهادة العالمية. وبلغ من إعجاب رئيس اللجنة بالطالب العالم، أن قال: "هذا بحْر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حِجاج".

وشاءت الأقدار أن تُمتحن الحياة الفكرية بفتنة ضارية أثارها كتابا: "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، و"في الشعر الجاهلي" لطه حسين. وكان الشيخ محمد الخضر حسين واحدًا ممن خاضوا هذه المعركة بالحجة القوية والاستدلال الواضح والعلم الغزير. أما الكتاب الأول فقد ظهر في سنة 1344هـ/1925م وأثار ضجة كبيرة، وانبرت الأقلام بين هجوم عليه ودفاع عنه. وقد صدم الكتاب الرأي العام المسلم حين زعم أن الإسلام ليس دين حكم، وأنكر وجوب قيام الخلافة الإسلامية، ونفى وجود دليل عليها من الكتاب والسنة. وكانت الصدمة الثانية أن مؤلف هذا الكتاب، هو عالم من علماء الأزهر. وقد نهض الشيخ محمد الخضر حسين لتفنيد دعاوى الكتاب، فأصدر كتابه: "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" سنة 1344هـ/1925م، تتبع فيه أبواب كتاب علي عبد الرازق، فكان يبدأ بتلخيص الباب، ثم يورد الفقرة التي تعبّر عن الفكرة موضوع النقد فيفندها، ونقد استخدام المؤلف للمصادر، وكشف أنه يقتطع الجمل من سياقها، فتؤدي المعنى الذي يقصده هو لا المعنى الذي يريده المؤلف. وقد كشف الخضر حسين في هذا الكتاب عن علم غزير وإحاطة متمكنة بأصول الفقه وقواعد الحجاج، وبصيرة نافذة بالتشريع الإسلامي، ومعرفة واسعة بالتاريخ الإسلامي ورجاله وحوادثه.وأمَّا الكتاب الآخر، فقد ظهر سنة 1345هـ/1926م، وأحدث ضجة هائلة، حيث جاهر مؤلفه الدكتور طه حسين باحتقار والشك في كل قديم دُوِّن في صحف الأدب، وزعم أن كل ما يُعد شعرًا جاهليًا، إنما هو مختلق ومنحول. ولم يكتف بهذه الفرية، فجاهر بالهجوم على المقدسات الدينية حيث قال: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن هذا لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي...". وقد انبرت أقلام غيورة لتفنيد ما جاء في كتاب الشعر الجاهلي من أمثال الرافعي، والغمراوي، ومحمد فريد وجدي، ومحمد الخضر حسين الذي ألَّف كتابا شافيا في الرد على طه حسين وكتابه بعنوان: "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" فنَّد ما جاء

فيه، وأقام الأدلة على أصالة الشعر الجاهلي، وكشف عن مجافاة طه حسين للحق، واعتماده على ما كتبه المستشرق الإنجليزي مرجليوث(1858-1940م)David Samuel Margoliouth دون أن يذكر ذلك. ويعد كتابه، باعتراف طه حسين نفسه، من أهم الردود عليه وأشدها حجة.

وفي ميادين الإصلاح، اتجه الشيخ إلى تأسيس الجمعيات الإسلامية، فاشترك مع جماعة من الغيورين على الإسلام سنة 1346هـ/1927م في إنشاء جمعية الشبان المسلمين، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام والدفاع عن قيمه الخالصة، ومحاربة الإلحاد العلمي. ولا تزال هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي بعضا من رسالتها القديمة. وأنشأ أيضا "جمعية الهداية الإسلامية"، وكان نشاطها علميا أكثر منه اجتماعيا، وضمَّت عددا من شيوخ الأزهر وشبابه وطائفة من المثقفين، وكوَّن بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها، وأصدر مجلة باسمها كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ. وإلى جانب هذا النشاط الوافر، تولى رياسة تحرير مجلة نور الإسلام (الأزهر الآن) التي أصدرها الأزهر في المحرم من عام 1349هـ/ ماي1930م، ودامت رئاسته لها ثلاثة أعوام. كما تولى رئاسة تحرير مجلة لواء الإسلام سنة 1366هـ/1946م. وتحمل إلى هذه الأعباء، التدريس بكلية أصول الدين، فالتف حوله الطلاب، وأفادوا من علمه الغزير وثقافته الواسعة. وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1350هـ/1931م، كان من الرعيل الأول الذين اختيروا لعضويته. كما اختير عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وأثرى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ببحوثه القيمة عن صحة الاستشهاد بالحديث النبوي، والمجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية، وطرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية.

مشيخة الأزهر:

نال الشيخ عضوية جماعة كبار العلماء برسالته القيمة "القياس في اللغة العربية" سنة 1370هـ/1950م. ثم لم يلبث أن وقع عليه الاختيار شيخا للجامع الأزهر في 26 ذي الحجة سنة 1371هـ/16 سبتمبر 1952م، وكان الاختيار مفاجئًا له، فلم يكن يتوقعه أو ينتظره بعدما كبر في السن وضعفت صحته، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكرم أحد المناضلين في ميادين الإصلاح، فأبدى الشيخ في البداية امتناعًا نظرًا لخطورة وأهمية المسؤولية، لكنّه قَبل بعد إلحاح السيد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصري، وتذكّر الشيخ والدته التي كانت تداعبه في صباه وهي تقول له:"لخضر يا لخضر ** تكبر وتولي شيخ الأزهر"[24]. حيث اعتلى أكبر منصب ديني في العالم الإسلامي، وكان في ذهن الشيخ حين ولي المنصب الكبير، وسائل لبعث النهضة في مؤسسة الأزهر، وبرامج للإصلاح، لكنه لم يتمكن من ذلك، ولم تساعده صحته على مغالبة العقبات. ثم لم يلبث أن قدم استقالته احتجاجًا على اندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي، وكان من رأيه أن العكس هو الصحيح، فيجب اندماج

24- ل. فكرون: "الشيخ محمد الخضر حسين الطولقي". جريدة الخبر، السبت 04 أوت 2012م

القضاء الأهلي في القضاء الشرعي؛ لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون المصدر الأساسي للتشريع، وكانت استقالته في 2 جمادى الأولى عام 1372هـ/ 18 يناير 1953م. ويذكر له، في أثناء توليه مشيخة الأزهر، قولته: "إن الأزهر أمانة قي عنقي، أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص" وكان كثيرا ما يردد: "يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدها العفاء".

مؤلفاته:

كان الشيخ عالما فقيها، لغويا أديبا كاتبا من الرعيل الأول. أسهم في الحركة الفكرية بنصيب وافر، وترك للمكتبة العربية زادا ثريا من مؤلفاته، منها: رسائل الإصلاح، وهي في ثلاثة أجزاء، أبرز فيها منهجه في الدعوة الإسلامية ووسائل النهوض بالعالم الإسلامي- الخيال في الشعر العربي- آداب الحرب في الإسلام- تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي- ديوان شعر "خواطر الحياة". بالإضافة إلى بحوث ومقالات نشرت في مجلة الأزهر، ونور الإسلام، ولواء الإسلام، والهداية الإسلامية.

وفاته:

وبعد استقالته من المشيخة، تفرغ للبحث والمحاضرة، حتى لبى نداء ربه مساء الأحد 13 من رجب 1377هـ/02 فبراير 1958م، ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه. ونعاه العلامة محمد علي النجار بقوله: " إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره إلا في النّدْرَى. فقد كان عالما ضليعا بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم. حفيظا على العروبة والدين، يردّ ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار منابذًا لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم ..."[25].

درس الكثير من طلاب سوف، منهم: الشيخان إبراهيم بن عامر، والطاهر العبيدي...

5- تتلمذ الشيخ إبراهيم بن عامر على بعض علماء تونس:

ولد الشيخ إبراهيم بن عامر خلال عام 1292هـ/1875م بالوادي،[26] وقد أظهر ميلا واضحا للعلم والتعليم، فحفظ جزءا من القرآن الكريم في صباه، وتلقى دروسا على يد بعض شيوخ قمار في المبادئ النحوية والفقهية مثل: دراسته لمتن الآجرومية في قواعد النحو، والمرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر في الفقه المالكي. ثم اشتاقت نفسه إلى طلب المزيد من العلم والمعرفة، فرحل إلى بلدة نفطة بالجريد

25 - انظر عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج3، ص 275؛ ملتقى أهل الحديث (بتصرف).

26 - حسب وثيقة من بعض أعيان سوف يشهدون فيها أن ميلاد الشيخ كان عام 1875م من والده المذكور، وأمه مبروكة بنت محمد الحمدية العشية. وهذه الوثيقة رقمها 453، مسجلة بالمحكمة الشرعية بالوادي. كما توجد هذه الوثيقة أيضا في أرشيف إيكس أون بروفانس مؤرخة يوم 24-9-1910، تحت رمز: .A.O.M.17H31

التونسي، للتزود بالعلم على يد بعض علمائها البارزين أمثال: الشيخ الحاج علي بن الحاج نصر الجريدي الزبيدي الذي كان مقيما بنفطة، والذي درسه بزاوية الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز، كما هي عادة جل الجزائريين الراغبين في مواصلة دراستهم في جامع الزيتونة. ثم رجع الشيخ إلى مسقط رأسه، وزاول تعليمه على يد شيوخ المنطقة مثل: محمد العربي بن محمد الصالح بن موسى(1873–1905م)[27]، وعبد الرحمن العمودي(ت. 1909م)[28] اللذين نصحاه بالتوجه إلى جامع الزيتونة بتونس لمواصلة دراسته العليا.

دراسته بجامع الزيتونة:

طبق الشيخ إبراهيم وصية شيوخه وتوجه إلى جامع الزيتونة المعمور، بعد أن باعت أمه بخنقها لتساعد ابنها على كلفة السفر، وشرع يدرس على يد شيوخ فخام أمثال: الشيخ النخلي والشيخ الخضر بن الحسين[29] والشيخ

---

27 – الشيخ محمد العربي موساوي بن محمد الصالح بن موسى بن بوترعة. هو من عرش سعيد أولاد اعمر. وفد جده موسى من الحجيرة أوائل القرن 19م. علم القرآن بجامع الظهارة نحو 50 عاما، ثم لما ساء الحال مع الجماعة، انتقل إلى جامع سيدي الحسين، وقضى فيه وقتا طويلا. وأنجب محمد الصالح الذي تزوج بامرأة تدعى خديجة بنت ستو، فولدت له ثلاثة أولاد وهم: سي محمد العربي، وبالقاسم، وسي محمد. وتزوج بامرأة أخرى، فأنجب منها سي أحمد، كما أنجب أربع بنات، وانحاز إلى عرش المصاعبة. ولد الشيخ محمد العربي عام 1290هـ/1873م بالوادي. كان غزير العلم، بذل جهودا معتبرة في التدريس بزاوية سيدي سالم، وجامع سيدي المسعود بالوادي. ثم انتقل إلى تقرت ودرس بالمسجد العتيق، وشرع في تفسير القرآن الكريم. اتصف بالتواضع والزهد والورع. تزوج مامة بنت عمار التي أنجبت له زينة، زوجة الشيخ إبراهيم بن عامر. ثم طلقها وتزوج عائشة بنت بدة من بلدة الطريفاوي، فأنجبت له الشيخ الميداني. توفي يوم الأربعاء 17 ذي الحجة من عام 1322هـ/ 22 فبراير عام 1905م.
انظر مصطفى سالمي: مخطوط الدر المصفى.

28 – ولد الشيخ عبد الرحمن العمودي بالوادي، وأقام أولا بحي الأعشاش، ثم انتقل لحي المصاعبة، وسكن في المنزل الذي امتلكه الأخضر شبرو. كان متصوفا ورعا زاهدا، كثير التجوال ناشرا للعلم. عمل في سلك القضاء بمحكمة كوينين، ودرس على يديه الكثير من الطلبة أمثال: الشيخ إبراهيم بن عامر، والشيخ الطاهر العبيدي، والشيخ العروسي محمدي. توفي عام 1327هـ/ 1909م، ودفن بمقبرة الأعشاش بالوادي.
انظر إبراهيم بن عامر: البحر الطافح ص36، وتقاييد الشيخ مصطفى سالمي؛ ومقابلة مع محمد الطاهر العمودي، محاسب من الوادي، وقريب للعائلة عام 2003.

29 – الشيخ محمد النخلي (1278– 1342هـ/1862– 1924م). ولد بالقيروان وتوفي بتونس. هو شاعر وفقيه من أعلام مدرسة جامع الزيتونة. كان متأثرا بمدرسة جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده. وكان نقادا خبيرا، وأستاذا كبيرا، ميالا لتحقيق المباحث، نابغة وشعلة في الذكاء والمحاضرة، ذا همة عصامية ونفس أبية. تصدر للتدريس وتخرج عليه الكثير من الفحول. وقضى جل عمره قراءة وإقراءا. وختم الكتب الضخمة في فنون شتى، فشاع ذكره وارتفع قدره. توفي سنة 1342هـ/1924م.
انظر أحمد البختري: المرجع السابق ص235 – 240.

محمد الطاهر بن عاشور[30]، والشيخ الحسن بن يوسف الذي أوصى الشيخ تلاميذه فيما بعد بملازمته. وكان هذا الأخير يدرس جوهرة التوحيد ومختصر البخاري لابن أبي جمرة[31]. وهكذا تعرف الشيخ إبراهيم على مختلف العلوم السائدة في عصره والتي أهلته لأن يكون مدرسا من طراز عال حتى نال مرغوبه، وتحققت جميع أمانيه، ثم رجع إلى مسقط رأسه مشمرا عن سواعد الكد والجد[32].

وقد ألف مجموعة كبيرة من الكتب، منها كتاب: النفحات الربانية على القصيدة المدنية، وهي قصيدة تسمى القصيدة المدنية من نظم شيخه وأستاذه سي الحاج علي بن الحاج نصر الجريدي الزبيدي. ونظرا لما امتازت به هذه القصيدة من نفحات روحية ربانية، جعلت الشيخ إبراهيم يقوم بشرحها، مقتديا بشيخه الذي سلك هذا الطريق الرباني. ومما قاله في المقدمة: "وبعد، فقد اشتهرت أناس بالعشق والهيام، بطيبة وساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان من جملة أولئك أوحد الزمان وعلامة الأوان، الذي ليس له مجاري في هذا الميدان بالمكان، أستاذي الشيخ سيدي الحاج علي بن الحاج نصر الجريدي، القاطن بنفطة الذي اشتهرت نسبته لفرقة بالزبيدي. قد غاص هذه البحار الزاخرة، وأخذ من مصونها لآلئ فاخرة، من شذراتها القصيدة المدنية الباهرة، التي جعلها في توجهه للحجاز وبقاعه الطاهرة، واعتنى بنقلها الطلبة لما فيها من اللواهج الظاهرة، ولما انطوت عليه من ذكر المحبين وأنوارهم الزاهرة. وكان المطلوب من كل إنسان، بأن يجعل في عمره شيئا من هذا الشأن. وسميته: النفحات الربانية، على القصيدة المدنية، فأردت أن أشرح تلك القصيدة اقتداء بمن سلك هذا الطريق."

وقد احتوى الكتاب على أكثر من 40 ص. وكانت الطبعة الأولى عام 1326هـ/1908م، بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد 57[33].

الخاتمة:

30- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بن محمد بن محمد الطاهر، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية. حفظ القرآن الكريم، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة عام 1310هـ/1892م حتى حصل على شهادة التطويع عام 1313هـ/ 1896م. قام برحلات إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وإلى أوروبا وإستانبول. وهو أول من أحرز على الجائزة التقديرية للرئيس الحبيب بورقيبة عام 1968م. من مؤلفاته: التحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم في 30 مجلدا، وقصة المولد النبوي الشريف، ومقاصد الشريعة الإسلامية.

توفي يوم الأحد 13 رجب 1393هـ/12- 08- 1973م، ودفن بمقبرة الزلاج بتونس.

انظر محمد محفوظ: المرجع السابق ج3 ص304، 306-307.

31 - حمزة بوكوشة: تمهيد ص20.

32 - الشيخان. مطبعة مزوار، الطبعة الأولى، 2010، ص 25.

33.- النفحات الربانية على القصيدة المدنية. طبعة أولى، بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط، عدد 57 بتونس، 1326هـ

وفي نافلة القول، يتضح لنا من خلال هذه الدراسة، أن العلاقات الثقافية والبعثات العلمية ما فتئت تتطور مع توالي الأزمان، وتعاقب الدهور والأيام، ولاسيما بين القطرين المتجاورين. وقد عرفت هذه الروابط ازدهارا وانتعاشا، وخاصة منذ أن تدفقت هجرات أهل سوف على تونس، سواء للبحث عن العمل في المناطق المنجمية، أو بالنسبة للمبادلات التجارية عن طريق القوافل، أو بسبب الهجرات الطلابية لمواصلة الدراسة في جامع الزيتونة وفروعه. وقد أثمرت هذه الاتصالات في ربط علاقات متينة وراسخة لا تزول بمرور الأزمان، وقد نتج عنها تمازج السكان واختلاط القبائل، وانصهارها في وحدة متراصة. كما أن هذه العلاقات الثقافية قد وفرت للوطن الجزائري المسؤول الكفء والإطار الناجح، الذي تحمل بكل أمانة وصدق، عبء مواصلة خوض معركة البناء والتعمير.

النتائج والتوصيات:

من خلال الدراسة التي أجريتها على الموضوع الآنف الذكر، يمكننا التوصل إلى النتائج والتوصيات التالية:

1- النتائج:

- ظهور لحمة قوية ورابطة متينة وانصهار اجتماعي كبير بين سكان أحواز سوف وبلاد الجريد التونسية نتيجة الهجرات المتبادلة عبر العصور والأزمان.

- الدور الرائد لجامع الزيتونة في تمتين عرى التواصل والوحدة الحقيقية بين المناطق المتجاورة.

- المنافع المشتركة بين البلدين المتجاورين، واختلاط وشائج الدم والقربى.

- ظهور نخبة من العلماء والمثقفين حافظوا على شخصية الأمة الجزائرية من الذوبان والانحلال، وكانوا النواة المبكرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

2- التوصيات:

- دفع المثقفين والباحثين من كلا القطرين لإنجاز الدراسات والبحوث المتعلقة بالتاريخ المشترك.

- إماطة اللثام عن التاريخ المشرق الذي يبرز مآثر الوحدة الحقيقية بين المنطقتين المتجاورتين.

- العمل على إنجاز موسوعة تاريخية مشتركة، تدون لأشهر العلماء والمفكرين الجزائريين المتخرجين من جامع الزيتونة.

- عقد ملتقيات دولية وندوات مغاربية من أجل التباحث حول كل القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تخدم المصالح المشتركة.

مصادر ومراجع البحث

1- البختري أحمد: الجديد في أدب الجريد. الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1973.

2- بوكوشة حمزة: تمهيد، في كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف. الدار التونسية للنشر 1977.

3- ـــــ،ـــــ: حول دور وادي سوف العلمي، وعلاقة علماء تونس بحواضرها. مراسلة يوم 12 جانفي عام 1994م، للأستاذ علي غنابزية.

4- الجبرتي: حياة محمد الأمير السنباوي.

5- الجيوشي محمد إبراهيم: "أشهر الدعاة في العصر الحديث: السيد محمد بن علي السنوسي وخلفاؤه والدعوة السنوسية". مجلة الداعي، العددان 6-7 (دار العلوم ديوبند:أبريل- يونيو 2013م).

6- حسني الهاشمي: نبذة عن تاريخ جامع الشيخ الحسين بن علي بن عمر، وهو عبارة عن تقرير تاريخي كتبه عام 1967 بطلب من الإمام عبد الحميد قروي، لفائدة وزارة الأوقاف الجزائرية.

7- الحسيني علي الرضا: رسائل محمد المكي بن عزوز.

8- الزياتي سليمان رصد الحنفي: كنز الجوهر في تاريخ الأزهر.

9- سالمي مصطفى: تقاييد الشيخ مصطفى سالمي في مخطوط الدر المصفى. رتب أبوابه وعلق عليه د./ علي غنابزية 2001.

10- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998.

11- سمراد سمير: "الشاعر الناقد الشيخ حمزة بوكوشة". جريدة الإصلاح، ع 9، (الجزائر: ماي وجوان 2008).

12- الشريف محمد موسى: شيخ الأزهر محمد الخضر حسين.

13- الشهاب: م13، ج1 (1 محرم 1356هـ/ 14 مارس1937م.

14- عامر إبراهيم: البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح. مطبعة بيكار وشركائه بتونس عام 1323هـ.

15- ـــــ،ـــــ: النفحات الربانية على القصيدة المدنية. طبعة أولى، بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد 57 بتونس، 1326هـ.

16- غنابزية علي: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300-1374هـ/ 1882-1954م. رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر لجامعة الجزائر عام 2009، غير مطبوعة.

17- فكرون ل.: "الشيخ محمد الخضر حسين الطولقي". جريدة الخبر، السبت 04 أوت 2012م

18- فوزي أشرف: شيوخ الأزهر.

19- قمعون عاشوري: الشيخان. مطبعة مزوار، الوادي، 2010 .

20 - ـــــ،ـــــ: دور المدارس القرآنية والزوايا في تربية الفرد تربية إسلامية معاصرة(منطقة وادي سوف بالجنوب الشرقي للجزائر أنموذجا). محاضرة ألقيت في المؤتمر الدولي بجامعة آل البيت في أفريل 2012.

21- كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين، ج1 و ج3. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993.

22- محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين ج3. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، .1984

23- ملتقى أهل الحديث (بتصرف).

24- وثيقة رقم 453، مسجلة بالمحكمة الشرعية بالوادي؛ كما توجد أيضا في أرشيف إيكس أون بروفانس مؤرخة يوم 24-9-1910، تحت رمز: .A.O.M.17H31